الفصل الثـالث

كيف حضر أشهر الخطباء خطبهم؟

obeikan.com

الفصل الثالث

كيف حضر أشهر الخطباء خطبهم....؟

كنت موجوداً فى مأدبة عشاء أقيمت فى نادى (روترى) بنيويورك، عندما كان الخطيب الرئيسى موظف حكومى بارز. فالمركز المرموق الذى يشغله، منحه احتراماً وهيبةً، وكنا ننتظر بشوق سماع خطابه. إذ كان قد وعدنا بأن يخبرنا عن نشاطات دائرته التى كانت محط اهتمام كل رجل أعمال فى نيويورك.

كان يعرف موضوعه جيداً، ويعرف عنه أكثر بكثير مما يستطيع استخدامه؛ لكنه لم يخطط لخطابه ولم ينتق مادته ولم ينسقها بشكل ترتيبى. وهكذا غاص بتهور فى خطابه فلم يدرى إلى أين هو ذاهب، لكنه مضى فى طريقه.

وباختصار، كان عقله مجرد خليط، وكذلك كان الفطور الذهنى الذى قدمه لنا، فقدم الآيس كريم فى البداية، ثم وضع الحساء أمامنا وبعد ذلك جاء دور السمك واللوز، وفوق كل ذلك، بدا أن هناك مزيجاً من الحساء والأيس كريم والحر الأحمر، ولم أر فى أى مكان وزمان خطيب مرتبك مثله.

كان يحاول أن يتحدث ارتجالاً، لكن فى غمرة يأسه، سحب رزمة من الأوراق من جيبه، معترفاً أن سكرتيرته قد جمعتها له، ولم يتساءل أحد عن صحة تأكيده. حتى إن الأوراق نفسها لا تزيد ترتيباً عن شاحنة قاطرة مليئة بكسارة الحديد. فكان يتعثر بها بعصبية وهو يحدق من صفحة لأخرى؛

محاولاً توجيه نفسه وايجاد طريق يؤدى إلى خارج الظلام، وحاول أن يتكلم وهو يسعى إلى ذلك. فاستحال الأمر عليه، فاعتذر، ثم طلب ماء وشرب بيد مرتجفة، بعد ذلك نطق بمزيد من الجمل المبعثرة مكرراً نفسه، حضر فى الأوراق ثانية... ولحظة بعد لحظة، أصبح أكثر ضياعاً وغربة وحرجاً. تصبب العرق من جبينه، وارتجف المنديل وهو يمسحه. أما نحن الذين شاهدنا إخفاقه التام، فقد ثارت عواطفنا ومشاعرنا، وعانينا من الإحراج، لكن ذلك الخطيب تابع بعثرة الأوراق، وهو يعتذر ويشرب، وكل واحد، ما عداه، شعر أن المشهد يشارف على الكارثة الكلية، وارتحنا عندما جلس وتوقف عن كفاحه المميت. لقد كنت أكثر المستمعين قلقاً، وكان هو أكثر خطيب إحراجاً ومهانة، لقد جعل خطابه مثلما قال جان جاك روسو عن كيفية كتابة رسالة الحب: بدأ من دون أن يعرف ما الذى سيقوله، وانتهى من دون أن يعرف بما نطق.

إن مغزى القصة هو كما قال هربرت سبنسر: «عندما لا تُنسق معرفة الإنسان، كلما حصل على المزيد منها، كلما ازداد ارتباك أفكاره».

ما من رجل عاقل يبدأ ببناء بيت من دون وضع خطة له، لكن لماذا يبدأ بإلقاء خطابه من دون أى نوع من التصميم أو البرمجة...؟

إن الخطاب هو رحلة ذات هدف، ويجب أن تكون ذات امتياز. والإنسان الذى يبدأ بمكان غير محدد، ينتهى عادة هناك.

وددت لو أستطيع رسم قول نابليون بأحرف حمراء فوق كل باب فى الأرض، حيث يتجمع طلاب فن الخطابة: «إن فن الحرب هو علم حيث لا ينجح الأمر الذى لم يُحسب له أو يُفكر به».

والأمر صحيح فى الخطابة تماماً كما فى القتال، ولكن هل يدرك الخطباء ذلك ـ أو، إن هم فعلوا ـ هل يستخدمونه دائماً؟ . . . كلا، فمعظمهم لا يفعل ذلك. وغالباً ما يكون الخطاب أقل تنسيقاً من طبق سمك مطهى.

ما هو التنسيق الأفضل والأكثر فعالية لمجموعة محددة من الأفكار؟ لا يمكن لأحد الإجابة حتى يدرها. وهى دائماً مشكلاً جديداً، ومسألة أزلية يجب أن يثابر الخطيب على السؤال والإجابة. فلا يمكن إعطاء قواعد ثابتة، لكننا نستطيع، فى أى حال، أن نذكر بإيجاز، وضمن حالة واقعية، ما الذى نعنى بالتدابير المنسقة.

هنا خطاب أُلقى منذ بضع سنوات أمام (الاتحاد الوطنى لمجالس الأملاك الثابتة). وفاز بالجائزة الأولى من بين سبعة وعشرين خطاباً عن مدن مختلفة. بُنى الخطاب بأسلوب جيد، وهو مليء بالوقائع المذكورة بوضوح وسرعة وبشكل مثير. وهو يضج بالحياة والحركة، ويستحق القراءة والدراسة.

السيد الرئيس، أيها الأصدقاء:

منذ ١٤٤ سنة، ولد هذا الوطن العظيم، الولايات المتحدة الأمريكية، فى مدينتى فيلادلفيا، وهكذا من الطبيعى أن يكون لدى هذه المدينة سجلاً تاريخياً، له روحاً أميركية قوية لم تجعلها أعظم مركز صناعى فى البلاد فحسب؛ بل أيضاً واحدة من أضخم وأجمل المدن فى العالم أجمع.

إن مساحة فيلادلفيا توازى مساحة ميلوكى وبوسطن، باريس وبرلين. وقد خصص قسم من أفضل وأجمل الأراضى فيها لإنشاء المتنزهات والساحات والجسور؛ ليتوفر للسكان الأماكن الملائمة للترفيه والسعادة والبيئة الجيدة التى تناسب كل أميركى صالح.

– فيلادلفيا –، أيها الأصدقاء، ليست فقط مدينة ضخمة، نظيفة، وجميلة، بل هى معروفة أيضاً فى جميع أنحاء العالم على أنها مصنع العالم، وطبقاً للإحصائيات الدقيقة، ليست هناك أية مدينة توازى فيلادلفيا فى إنتاج البضائع الصوفية والجلدية والقطنية والقبعات والصناعات الثقيلة والمعدات وغيرها من الأشياء الضخمة.

نحن نبنى قاطرة للسكة الحديدية فى كل ساعتين، وأكثر من نصف سكان هذه المدينة العظيمة يقودون سيارات صنعت فى مدينة فيلادلفيا. نحن نصنع سجاداً وبسطاً أكثر من بريطانيا العظمى وأيرلنده معاً،– وفى الحقيقة، إن عملنا الصناعى والتجارى هائل حتى إن موجودات مصارفنا بلغت فى السنة الماضية أرقاماً خيالية.

لكن أيها الأصدقاء، فيما نحن فخورين جداً بازدهارنا الصناعى الرائع، وفيما نحن فخورين جداً لكوننا أضخم مركز طبى وفنى وثقافى فى البلاد، إلا أننا نشعر باعتزاز أكثر؛ لأن لدينا منازل فردية فى مدينة فيلادلفيا، أكثر مما هناك فى أية مدينة فى العالم، وما أريد أن ألفت انتباهكم الخاص إليه هو أن عشرات الآلاف من هذه المنازل يملكها عمال مدينتنا، وعندما يملك الإنسان الأرض التى يقف عليها والسقف الذى يرتفع فوق رأسه؛ فإنه لن يتأثر بالمناقشات المليئة بالأفكار المستوردة.

ليست فيلادلفيا أرضاً صالحة للفوضوية الأوروبية؛ لأن منازلنا ومؤسساتنا الثقافية وصناعتنا الماردة تنتجها الروح الأميركية التى ولدت فى مدينتنا، وهى موروثة عن أجدادنا القدماء. فيلادلفيا هى المدينة الأم لهذا البلد العظيم، ومنبع للحرية الأميركية. إنها المدينة التى صُنع بها أول علم

أميركى، وحيث اجتمع أول كونغرس فى الولايات المتحدة، إنها المدينة التى فيها وُقِّع إعلان الاستقلال وهى المدينة التى تشتمل على جرس الحرية الذى أوحى لعشرات الآلاف من رجالنا ونسائنا وأطفالنا، لذلك نؤمن أن لدينا مهمة مقدسة وهى أن ننشر الروح الأمريكية ولتبقى شعلة الحرية تشتعل ولتبقى، بإذن الله، حكومة واشنطن، لنكولن، وثيودور روزفلت، مصدر وحى للإنسانية جمعاء».

دعنا نحلل هذا الخطاب؛ لنرى كيف تم بناءه وكيف حقق رسالته. فى الدرجة الأولى، لديه بداية ونهاية، وهذه ميزة نادرة ـ أكثر ندرة مما تعتقد. فهو يبدأ بمكان ما، ويتجه بشكل مستقيم كالأوزة البرية. فهى لا تميل، ولا تضيع الوقت.

إنه يتمتع بالحيوية والتفرد، فالخطيب يستهل بذكر شيء عن مدينته، لا يستطيع سائر الخطباء أن يقولونه عن مدنهم، فهو يقول: إن مدينته هى مركز ولادة الوطن.

إنه يذكر أنها إحدى أضخم وأجمل المدن فى العالم. لكن هذا الإدعاء هو عام، لن يؤثر كثيراً فى نفس أى إنسان، لقد عرف الخطيب ذلك، فساعد المستمعين على رؤية مساحة فيلادلفيا حين ذكر أنها توازى ميلوكى وبوسطن، باريس وبرلين، فهذا محدد وملموس ومثير ومدهش، إنه يضع إشارة، ويدفع فكرته بأفضل مما تفعله صفحة كاملة من الإحصاءات.

ثانياً، يعلن أن فيلادلفيا «تعرف فى كل مكان على أنها مصنع العالم». يبدو ذلك مبالغاً به، أليس كذلك...؟ وهو يشن الدعاية. ولو أنه انتقل إلى النقطة التالية على الفور، لما اقتنع أحد بكلامه، لكن لم يعقل. بل توقف

ليعدد المنتجات، التى فيلادلفيا هى رائدة العالم بإنتاجها: «البضائع الصوفية والجلدية والقطنية والقبعات والمنتجات الثقيلة والمعدات وغيرها....».

إن هذا لا يبدو كدعاية الآن، أليس كذلك...؟

فيلادلفيا تصنع قاطرة سكة حديد كل ساعتين، وأكثر من نصف السكان فى هذا البلد العظيم يقودون سيارات مصنوعة فى مدينة فيلادلفيا».

ما الذى يفعله الخطيب بعد ذلك؟ ...يقفز عائداً إلى موضوع حجم فيلادلفيا الذى ذكره فى البداية، وقدم بعض الحقائق التى نسى أن يذكرها حينذاك؟... كلا. ليس الأمر كذلك. فهو يلازم نقطته إلى أن ينتهى منها. وبعدما يفعل ذلك؛ لن يحتاج للعودة إليها ثانية؛ لذلك تشعر بالامتنان العميق لهذا الخطيب. فأى شيء مزعج أكثر من الخطيب الذى ينتقل من شيئ لآخر كالخفاش عند المغيب...؟!.

لقد ذكر الكثير من الوقائع الباردة. لكنها ليست من النوع الذى يقلل من الفصاحة. فهذا الخطيب يهدف إلى بناء العقدة، وأن يلامس القلب ويثير المشاعر. وهكذا، وعلى امتداد البيوت، يعالج الجانب العاطفى، فيخبرنا ما الذى يعنيه صاحب البيت بالنسبة لروح المدينة. ويشجب الأفكار المستوردة. ويتغنى بفلادلفيا على أنها (منبع الحرية الأميركية). الحرية! كلمة سحرية، كلمة مليئة بالمشاعر والعاطفة التى بذل الملايين حياتهم من أجلها. هذه العبارة جيدة بمفردها، لكنها ستكون أفضل آلاف المرات لو أنه دعمها بمراجع محسوسة من الأحداث والوثائق التاريخية والعزيزة على قلوب مستمعين.. (إنها المدينة حيث صُنع أول علم أميركى، وهى المدينة حيث

اجـتـمع أول كـونغـرس فى الولايات المتـحـدة، وحـيث وُقِّع الإعـلان عن الإستقلال... جرس الحرية... مهمة مقدسة..؛ لنشر الروح الأميركية ... ؛لتبقى شعلة الحرية مضاءة، وهكذا، باذن الله، حكومة واشنطن، لنكولن، وثيـودور روزفلت، ربما تكون وحـياً للإنسانيـة جـمعـاء». هذه هى عـقـدة حقيقية.

إن هذا الخطاب كان من المحتمل أن يشرف على الإخفاق والفشل التام؛ لو أنه قيل بأسلوب هادئ خالٍ من الحياة والحيوية، لكن الخطيب ألقاه مثلما ألفه، بمشاعر وحماس هما وليدا الإخلاص العميق، فلا عجب أن نال الجائزة الأولى.

والآن كيف أنشأ أشهر الرجال خطبهم...؟

كتب السناتور البرت ج بفريدج كتاباً قصيراً ومثيراً جداً عنوانه (فن الخطابة). قـال هذا السـيـاسى البـارز: «يجب أن يكون الخطيب سـيـد موضوعه. ويعنى هذا أن تجمع الحقائق وتنسيقها وتدرسها وتفهمها وليس من ناحية واحدة، بل من جميع النواحى. كما يجب التأكد من أنها حقائق وليست مجرد افتراضات أو تأكيدات غير مبرهن عليها.

وبعد أن تجمع وتنظم حقائق أى موضوع، فكر فى الحل الذى تستلزمه هذه الحقائق، فيكتسب خطابك جدة وقوة ويكون حيوياً ومؤثراً. بعدئذٍ إكتب أفكارك بأقصى ما يمكنك من الوضوح والمنطق.

بمعنى آخر، قدم الحقائق من كلا الجانبين، ثم قدم النتيجة التى توضحها تلك الحقائق وتحددها.

قـال وودرو ويلسـون حـين سـئل أن يشـرح طرقـه: «أبدأ بلائحـة من

المواضيع التى أريد تغطيتها، وبعد أن أنسقها فى مخيلتى طبقاً لعلاقتها الطبيعية ـ أى إننى أربط الهيكل بعضاً ببعض، بعد ذلك أكتبه بطريقة الاختزال، إذ اعتدت على الكتابة بطريقة الاختزال؛ لأننى أجدها وسيلة عظيمة لتوفير الوقت. وفور القيام بذلك، أنسخه على آلتى الكاتبة، فأغير العبارات وأصحح الجمل وأضيف إلى المادة ما أريد».

أما ثيودور روزفلت فقد جهَّز خطبه فى أسلوب مميز: ينقب عن الحقائق ويراجعها ويقيّمها ويحدد أصولها إلى أن يصل إلى النتائج. إنه يصل إليها بشعور من التأكيد الذى لا يمكن الشك به.

بعد ذلك، وأمام رزمة من الورق، يبدأ فى الإملاء، يملى خطابه بسرعة ليدخل إليه روح الاندفاع والحياة والتلقائية. بعدئذٍ يراجع هذه النسخة المطبوعة فينسقها ويضيف إليها. وهو يقول: «لم أكسب شيئاً من دون العمل الشاق والتخطيط الصائب والعمل التحضيرى الدائب».

وغالباً ما كان يدعو الناقدين للاستماع إليه وهو يملى أو يقرأ خطابه أمامهم. وهو يرفض أن يتناقش معهم حول الأفكار التى يوردها؛ لأن عقله يكون قد صمم على تلك الأفكار بشكل مطلق، كان يريد أن يقال له. ليس ما يقول، بل كيف يجب أن تقال أفكاره.

كان يعود مراراً إلى نسخاته المطبوعة؛ ليبتر منها أو يصححها ويحسنها. ذلك هو الخطاب الذى تنشره الصحف، وبالطبع، لا يحفظه غيباً، بل يتحدث ارتجالياً، فكان خطابه يختلف عن الخطابات المنشورة والمصقولة. إلا أن مهام الإملاء والمراجعة كانت تحضيراً ممتازاً، إذ أنها جعلته معتاداً على مادته، ومسنقاً لنقاطه، ومنحته السلاسة التى قلما استطاع الحصول عليها

من خلال أى أسلوب آخر.

وقد وجد طلاب فن الخطابة أن من المفيد إملاء أحاديثهم أمام آلة التسجيل ومن ثم يستمعون إلى أنفسهم. هل هذا مفيد؟... أجل، وفى بعض الأحيان مدهش ورائع: إنه تدريب بحد ذاته، وأنا أحبذ هذا النوع من التدريب.

إن هذا التدريب على كتابة ما ستقوله، يجبرك على التفكير ويوضح أفكارك ويشبكها فى ذاكرتك، ويخفض تجولك الذهنى إلى الحد الأدنى. كما أنه يحسن أسلوبك الكلامى.

وقد نصحنا فى الفصل السابق بتدوين ملاحظات بعد تدوين مختلف الأفكار والأمثلة على قطع من الورق، وهنا نشير إلى ضرورة ترتيبها فى سلسلة من الأفكار المترابطة بحيث تمثل النقاط الرئيسية من خطابك.

بعدئذٍ اختر الأفضل منها مثلما يُنتقى القمح ويوضع الشعير جانباً فلا تبقى سوى حبة القمح الجيدة.

ونعود إلى الرئيس لنكولن، فعلى الرغم من أنه كان خطيباً ماهراً، إلا أنه لم يلقِ أى خطب بعد دخوله البيت الأبيض، ولا حتى أى خطاب عادى أمام مجلس وزرائه، إلا بعد أن يضعه مكتوباً بوضوح أمامه، وطبعاً، كان ملزماً بقراءة الخطاب الافتتاحى، وكان من المهم جداً أن يتقن كتابة خطب الدولة التاريخية. لكنه بعدما عاد إلى ايللينوا، لم يعد يستخدم أية ملاحظات فى خطبه فهو يقول: «إنها دائماً تتعب وتربك المستمع».

ومن منا يناقضه فى ذلك...؟ ألا تقضى الملاحظات على نحو خمسين بالمئة فى إثارة حديثك...؟ ألا تمنع، أو على الأقل تصعّب وجود الرابط

الثمين بين الخطيب وجمهوره...؟ ألا تخلق جواً من التكلف...؟ ألا تمنع المستمع من الشعور بأن الخطيب لديه الثقة والقوة الاحتياطية التى يُفترض أن يتميز بها...؟

أكرر قولى، ضع ملاحظات خلال التحضير ـ استخدم بعضها وأحذف البعض الآخر، وربما ترغب فى العودة إليها حين تتدرب على إنفراد على خطابك، وربما تشعر براحة أكثر، لو أنك تحتفظ بها بجيبك أثناء مواجهة الجمهور – لكن، مثل المطرقة والمنشار والفأس فى عربة السائس، يجب أن تكون أدوات للطوارئ، لا تستخدم إلا فى حالة الاصطدام والتحطم الكلى والتهديد بالموت والكارثة.

إن شعر بضرورة استخدام الملاحظات، اجعلها مختصرة جداً واكتبها بأحرف كبيرة. بعد ذلك، اذهب باكراً إلى المكان الذى ستخطب فيه، وخبئ ملاحظاتك وراء بعض الكتب، استرق النظر إليها حين تضطر لذلك، لكن تأكد من تغطية ضعفك أمام الجمهور. – لكن، وبرغم جميع ما قيل، هناك وقت يستلزم استخدام الملاحظات، فمثلاً، بعض الناس، خلال إلقاء خطبه القليلة الأولى، يعانى من العصبية والتوتر، حتى أنه لا يستطيع أن يتذكر خطبه التى جهزها.

ما هى النتيجة؟ ينسى المادة التى درسها بانتباه، فينزلق عن الطريق العالية، ويسقط فى الهاوية، لماذا لا يمسك مثل أولئك الأشخاص ملاحظات قليلة مكثفة بأيديهم خلال جهودهم الأولى...؟ فالطفل يتمسك بالأثاث لدى محاولاته الأولى للسير، لكن ذلك لا يستمر طويلاً.

وتجدر الاشارة إلى حقيقة مهمة، وهى أنه يجب ألا تقرأ وألا تحاول أن

تستظهر خطابك حرفياً، فإن ذلك يستهلك وقتاً ويؤدى إلى كارثة. ومع ذلك، وبرغم هذا التحذير، يحاول بعض من يقرأ هذه الأسطر أن يفعل ذلك. فإن فعل، فبماذا سيفكر حين يقف لإلقاء كلمته...؟ عن رسائله...؟ كلا، بل سيحاول أن يتذكر التركيب الإنشائى، ويفكر بالأشياء السابقة، ولا يتطلع نحو الأمام، فيعكس عمليات العقل البشرى؛ ويأتى خطابه جافاً بارداً لا لون له وبعيداً عن الطبيعة الإنسانية.

أرجوك، لا تنفق الساعات والطاقة بما لا يجدى.

حين يكون لديك مقابله عمل مهمة، هل تجلس تستظهر حرفياً، ما الذى ستقوله؟ ...طبعاً لا. بل تفكر ملياً حتى تتضح الأفكار فى ذهنك. ربما تضع بعض الملاحظات، وتعود إلى بعض السجلات وتقول فى نفسك: سأركز على هذ النقطة وتلك. وسأقول يجب أن يبذل شيئًا لهذه الأسباب ... بعدئذٍ تعدد الأسباب وتزودها بحالات مادية. أليست هذه هى طريقة تحضيرك لمقابلة عمل...؟ لماذا لا تستخدم المنطق ذاته أثناء تحضير الخطاب...؟

عندما طلب روبرت إدوارد لى، القائد العام للقوات الجنوبية، من يوليسيس غرانت، أن يكتب بنود الاستسلام، ارتبك قليلاً، لكنه لم يستسلم وقد كتب فى مذكراته ما يلى: «حين أمسكت بالقلم والورقة لم أعرف بأية كلمة أستهل البنود، كنت أعرف فقط ماذا يجول فى ذهنى، وودت أن أعبر عنها بوضوح كى لا أورد أى خطأ.

أيها القائد غرانت، لست بحاجة إلى معرفة أول كلمة. لديك الأفكار، ولديك المعتقدات، ولديك ما ترغب بقوله، فقله بوضوح. وكانت النتيجة

أن تزاحمت الجمل من دون أى جهد واع».

والأمر كذلك بالنسبة لأى إنسان، وإن كنت تشك فى ذلك، وجّه ضربة إلى رجل، وحين يستعيد وعيه، سيكتشف أنه تائه، ولا يجد الكلمات التى يعبر بها عن نفسه.

وبهذا المعنى كتب هوراس الشاعر الرومانى العظيم –، منذ ألفى سنة ما يلى: «لا تبحث عن الكلمات ، ابحث فقط عن الحقيقة والفكرة، عندئذٍ تتدفق الكلمات من دون أن تسعى إليها».

☆☆☆☆☆